الجوع والثورة

فصل تمهيدي

"أحدثكم هنا عن الجوع الذى
مَّر بنا .. وكم أخاف أن تحدثوا أبنائكم
عن النعمة التى مَّرت بكم .."
مأثورة

تمهيد :

"مصر هبة النيل".. مقولة هيرودت الشهيرة عن مصر. تلك المقولة التي صححها التاريخ وأعادها إلى مسارها الحقيقي الذى أيّده الواقع، وناصره العلماء والباحثون المنصفون ثم أضاف إليه المصريون ذخائر معارفهم وكنوز خبراتهم فأعادوا صياغتها لتصبح: " النيل هبة الله لمصر ومصر هبة الله للمصريين والمصريون هبة الله للعالم كله "، عربه وعجمِه، شرقه وغربه، قديمه وحديثه، لأن الله قد وهب هذه البلاد موقعاً فريداً يَنْدُر أن ترى عينُ مُنصَفة مثله، وموارد عديدة وفريدة وفوق كل هذا وهبها إنساناً فريداً في فِكره وتديُّنه وثقافته، فنتج عن امتزاج هذه العناصر الفريدة النادرة، حضارة زاهرةٌ هى خلاصة حضارات العالم بداية بزمان الفراعنة ومروراً بعصور الإغريق والرومان ثم انتهاءً بعصر الدولة لإسلامية. كانت حضارة ترعى الجسد وتراعي الروح، ولم تكن حضارة مادية قط، و لا روحانية صِرفة، ينفصل فيها الإنسان عن الواقع ولا يتمتع بمباهج الحياة و جوانبها الجميلة، لكن الحضارة المصرية ظلت على مر التاريخ حاملة للوجهين: المادي والرُوحي، حضارةً مُلبية لحوائِج البدن و حياة الروح في مزجٍ مُتناغمٍ و مُتجانس يندُر تحقيقه كما يصعُب الحفاظ عليه و بقائه مستمراً. فالحضارات غالباً ما تحيد في بعض مراحلها مُتأرجحةً بين الإفراط والتفريط،، فتميل لجانبٍ على حساب الجوانب الأخرى، وتلك هي أولى علامات الأفول وبدايات الزوال.

إن التاريخ وحده لا يصنع حضارة، والجغرافيا كذلك لاتكفي لازدهارها. فكما أن التاريخ يكتبه الأقوياء، فإن الحضارات يصنعها العظماء، الذين يستلهمون دروس الماضي لينيروا الحاضر ويبنون المستقبل. وهكذا كان المصريون دوماً في أغلب مراحل حضارتهم العريقة. ولقد قال تعالى في كتابه الكريم واصفاً مصر وأهلها :

{كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ} (الدخان ٢٥:٢٨).

أي أن قوم فرعون خرجوا من مصر ذات البساتين والأنهر والكنوز والمقام الكريم ثم غرقوا في البحر، وهو ما يدُل على ما كانت تتمتع به من خيرات .

من هذا الوصف الذى ذكره العليم الخبير لأرض مصر يمكننا أن نستنتج أن أي تقدم أو ازدهار لمصر لن يتحقق إلا بحُسن استغلال مواردها على نحوٍ يهتم بتوسيع رقعة الزراعة وتطوير أساليبها وتحقيق الاستغلال الأمثل للمُتاح من مواردها المائية، هذا إلى جانب حتمية الأخذ بأساليب التطوير وأسباب التقدم الصناعي لما في أرض مصر من ثروات طبيعية تتيح لها – إذا ما أُحسِن استغلالها – أن تكون في مصافِ الدول المُنتجة بل والمُصدرة أيضاً في غضون سنوات قليلة. وهنا لا ينبغي أيضاً ألا ننسى ما لمصر من موقعٍ مُتميزحبتها به الطبيعة، و شواطئ خلابة، وطقسٍ معتدلٍ طوال العالم، فضلاً عن ما على أرضها من آثارٍ هي في الحقيقة ثُلث آثار العالم مُجتمعة، كل هذا جعلها قبلة للزائرين والباحثين عن الراحة والاستجمام. فأي مقامٍ كبير هذا الذي حباها به الخالق العظيم.

وفى النهاية تبقى مصر بعراقتها و حضارتها، ويبقى المصريون بما منحهم الله من خصالٍ بشرية فريدة ربطت فيما بينهم بأواصر المودة و مشاعر الحب، هي من أهم الأسرار التي صنعت لهذا الشعب ذلك التاريخ العريق وتلك الحضارة العظيمة، وهو ما ينبغي أن يكون دافعاً لأبنائها على النهوض بحاضرهم وبناء مستقبلهم .

ورغم زيوع مفهوم الثورات وتكراره على ألسنة السياسيين والعامة .. بيد أن هناك اختلافات شديدة حول المفهوم سواء بين السياسيين انفسهم او بيان اطياف العوام المهتمة،ولذلك ثمة لغط شديد حول هذا المفهوم الذى اتسم بشدة الايجابية، حينما كان له هدف، تحقق على أرض الواقع، وانتهى الأمر بأنه أصبح مفهوما سيئ السمعة فى الأونة الأخيرة، حيث تسبب فى شروخ شعبية جسيمة تسببت فى سيول انهار من الدماء ووجهت من

خلاله طعنات متتالية للاقتصادى المعيشى للشعب. ووضع حاضر الشعوب ومستقبلها على حافة الهاوية،وذلك عندما غاب الأمن وتفشت الفوضى وعصف الجوع ببطون البسطاء.. الأمر الذى جعل البعض ينظر الى الثورات بانها حركات تامرية استهدفت تفكيك البلدان من الداخل واضعاف قدرتها على التنمية والمنافسة الدولية .. كما نُظر الى الثوار بانهم محض عملاء وخونة حصلوا على أجورهم مقدما،، وثارت النخبة المثقة ولاة لضمان السير فى طريق التفكك والانهيار وضمان وحماية مصالح الممولين لهذه الحركات والدافعين إليها .. كل ذلك ساعد الى الخلط بين الثورة والانتفاضة .. والهزة الشعبية والانقلاب على السلطة .. واصبح لكل مفهوم انصاره. ليس فقط على المستوى التنظيرى ولكن ايضا وصل إلى عمق الفعل والممارسة، فجعل الساحة صراعا بين الثورة والثورة المضادة .. لذا فقد احرى بنا أن نصدر اليكم مدخلا سوسيولوجيا لمفهوم الثورة واخراً للجوع.

أولاً : الثورة (مدخل سوسيولوجي) :

في حياة الأمم والشعوب أيام لا تنسي تظل ماثلة أمام الأجيال المتعاقبة تمتاز بأنها من الأيام الفارقة الصانعة للتغيرات الكبرى .. أيام تؤصل وتجسد مستقبل الشعوب وأمالها وطموحاتها .. وقد عاشت مصر على امتداد خريطتها أياماً خالدة مع بدء أحداث ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ وحتى سقوط رأس النظام السابق في الحادي عشر من فبراير ٢٠١١م.

" وهناك اتفاق بين العلماء الاجتماعيين على أن الإصلاح هو نقيض الثورة ذلك لأنه إستراتيجية للتغيير الاجتماعي تقوم على التدرج ويتم إيقاعها بالبطء النسبي الذي يعتمد على التراكم المجتمعي البطيء في حين أن الثورة تؤمن بالطفرة والانقلاب على الأوضاع المجتمعية الراهنة للتغير تغييراً جذرياً ".

وتعرف الثورة Revolution بأنها مصطلح ذو معان عدة ولكنها مرتبطة ببعضها البعض وهو يستخدم أحياناً كالإشارة إلى تدمير إحدى الجماعات الحاكمة بواسطة جماعة أخري وأن كان هذا الحدث يسمي في الغالب انقلاباً إذ أن الثورة تطلق عادة على الوقائع التاريخية التي يتم فيها القضاء على نظام سياسي وليس فقط تدمير جماعة أو صفوة حاكمة أما المعني الثالث للثورة فهي إحداث تغييرات جذرية في النظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي سواء كانت التغييرات مصحوبة بالقوة بالمعنى الأدق للكلمة أو واضحة في إطار ثورة.

ويعتبر أرسطو هو المؤسس الحقيقي لدراسة الثورات ففي الباب الخامس من مؤلفه "السياسة" نجده لا يناقش فقط التفكك أو التحلل الاجتماعي وقبوله أي تفسير تؤكده الشواهد الواقعية حتى ولو كان ذلك الذي يذهب إلى أن الرغبة في التخلص من الفقر يمكن أن تؤدي إلى انقلاب اجتماعي بل يتناول التغير السياسي، حيث أوضح أنه (أي التغير السياسي) يتيح غطاء دائرياً يضم مختلف أشكال الحكم، غير أنه لم يمنح هذا النمط الدائري اسماً معيناً وهو أول من لاحظ وناقش التغير السياسي العنيف.

ويري "ماركيوز Marcuse" في كتابه "الثورة المضادة والتمرد" محاولة البحث عن قوة ثورية جديدة، لأنه فقد الأمل المعقود على الطبقة العاملة في النظرية الماركسية الكلاسيكية فنجده يحلل استراتيجيات اليسار الجديد في ظروف تطور الرأسمالية المتقدمة ومن خلال محاولته لإحياء السمة الديالكتيكية للماركسية وأنه لا يتوقع من الطبقة العاملة القيام بدورها نتيجة تحولات جذرية كنتيجة الطفرات الهائلة في التكنولوجيا، لذا نجد ماركيوز يرى أن الثورة سوف تصدر من فئات أخرى غير الطبقة العاملة هي المنبوذين والملونين والعاطلين والأقليات المضطهدة، ثم أخيراً أضاف ماركيوز الطلاب بعد حركات الاحتجاج في أوربا عام ١٩٦٨.

وحيث أن الأمم التي تمتلك ثقل حضاري في حال تعرضت للاضطهاد فهي لا تستسلم بل تعمل لعلاج تلك الخسائر وتحقق نهضتها وقوتها فالشعب المصري لم يفقد حيويته وقدرته والدليل على ذلك هو قيامه بثورة ٢٥ يناير رغم كل ما تعرض له في العقود الثلاثة الماضية من سياسات

الاضطهاد والقهر والانتهاك الاقتصادي، إن الفعل الثوري يجعل ثقتنا في أنفسنا بلا حدود، فهذا الشعب الذي استطاع أن ينفض كل هذا الركام البغيض لا شك أنه يمتلك الإرادة والقدرة على تحقيق التنمية الشاملة وإعطاء نموذج نهضوي يفيض حيوية ورونقاً على الحضارة العالمية المعاصرة.

والثورة هي عملية تغيير سريع وجذري للنظام السياسي، بما يؤدي للإحاطة بالنظام القديم والنخبة التابعة له، والثورة تختلف عن عمليات التغيير الصغير أو المتوسط والتي تحافظ على النظام القديم، فالتغييرات عادة ما تكون تجميلية ويمكن اختبار الثورة الحقيقية عن طريق رؤية ما إذا كانت قد أطاحت بالنخبة القديمة أم لا فإذا ظلت في مكانها، فما حدث لا يعتبر ثورة.

ففي أي ثورة راديكالية تتخلص النخبة الجديدة من القديمة تماماً. ولا يعني ذلك ضرورة أن تكون الثورة دموية، ففي عام ١٩٨٩ على سبيل المثال مثل معظم دول أوربا الشرقية التي مرت بتغير جذري للأنظمة دون إراقة دماء وهذا ما سمي بالثورة البيضاء، وكانت رومانيا الاستثناء الدموي الوحيد.

ويتأسس منطق الثورات السلمية على مبدأين :

المبدأ الأول :

أن السلطة المستبدة ليست جسداً واحداً أصم، وإنما هي بناء ديناميكي مركب وهي لا تتحكم في الناس إلا لقبولهم بذلك، لذا فإن الثورة لا تحتاج إلى مواجهة النظام القمعي مواجهة مباشرة، وإنما يكفيها أن تحرمه من التحكم في المجتمع المستبد، فإذا فقد التحكم في حياة الناس فقد الثقة في نفسه، وأصبح سقوطه محتماً، فالثورات السلمية لا تهدم النظام المستبد مباشرة، وإنما تستنزفه من خلال حرمانه من دعم بعض مكونات سلطته، فيهدم البنيان الاستبدادي من تلقاء ذاته.

المبدأ الثاني :

أن العنف الدموي المباشر ضد السلطة المستبدة ليس خياراً مناسباً، والمقاومة السلمية أجدي وأبقي وقد بين المنظر الأمريكي "جين شارب" في كتابه "من الديكتاتورية إلى الديمقراطية" أن الثورات السلمية تبني على فكرة البطولة الهادئة التي ترفض الرد على عنف الاستبداد وبعنف مضاد فالانحراف إلى العنف الدموي يمنح الاستبداد أخلاقية الرد بالعنف ويسبغ على تمسكه بذاته طابعاً شرعياً.

ويتبين أن الثورات الشعبية هي مزيج من العفوية والتنظيم وهو ما اتضح خلال الثورة المصرية في ٢٥ يناير، فالعفوية عصمتها من الاستئصال، والتنظيم أعانها على حسن التسديد. وتحتاج كل ثورة إلى قيادة، لكن القيادة في عصر الانترنت قيادة انسيابية وليست هرمية وهذا ما يجعل استهدافها عسيراً، واستئصالها مستحيلاً، وبذلك تحقق في هذه الثورة المبدأ الأول لمنطق الثورات السلمية فهي لم تقم على مواجهة النظام القمعي مواجهة مباشرة وإنما اعتمدت على أن حرمانه من التحكم في المجتمع (أو ما يسمي بالتجويع السياسي) واستطاعت بالفعل أن تظهر عجزه أمام العالم وتحقق أيضاً المبدأ الثاني حيث اعتمدت الثورة على البطولة الهادئة التي ترفض الرد على عنف الاستبداد بعنف مضاد.

لقد بات واضحاً للجميع أن مصر قد تغيرت من حالة الذل والخضوع لنظام مستبد إلى صحوة وطنية شاملة تزداد كل يوم قوة، فمعظم الفئات والقوى الوطنية تقف اليوم ضد الاستبداد فالقضاة والنقابات المهنية والحركات السياسية، حتى أحزاب المعارضة الرسمية التي طالما اعتمد عليها النظام كديكور ديمقراطي فارقت الطاعة فجأة ودعت المصريين إلى مقاطعة الاستفتاء، فمصر تغلي بالثورة على الظلم والفساد والاستبداد ويتضح ذلك في أسباب خروج عشرات الآلاف من الشباب المصري كل يوم ليتلقوا بصدورهم ضربات الأمن المركزي ويتحملوا الاعتقالات والتعذيب من أجل العدل والحرية وخروج عشرات الآلاف من العمال في الاضطرابات بالإضافة إلى اشتراك

الشباب في المدونات على شبكة الانترنت لفضح النظام وجرائمه في تعذيب المواطنين وهتك أعراضهم.

أن أجيال الشباب عموماً والشباب العربي خصوصاً قد هاجروا من المجتمع الواقعي بكل ما يزفر به من قيود على حرية التفكير والتعبير والتنظيم والعمل السياسي بدون قهر وقيود وضعتها النظم السلطوية العربية إلى العالم الافتراضي الذي أوجدته شبكة الانترنت العنكبوتية من فضاء عاماً جديداً Public Sphere غير مسبوق في التاريخ الحضاري الإنساني وذلك لأنه أتاح لأجيال الشباب الغاضب الثائر على النظم الديكتاتورية والسلطوية مجالاً رحباً للتعبير الطليق عن الذات بغير قيود أو حدود، وقد استحدثت أدوات جديدة للاتصال تمثلت أساساً في المدونات والفيس بوك والتويتر غير أن ابتكار الفيس بوك غطى إلى حد كبير على تأثير المدونات لأنها تحولت من شبكة اجتماعية إلى شبكة سياسية يتم من خلالها التخطيط لثورة ٢٥ يناير المصرية على الفيس بوك بين شباب ناهض لا يعرفون بعضهم البعض معرفة شخصية ولكنهم أجمعوا على معارضة توجهات النظام السياسي المصري السلطوي وممارساته المنحرفة في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، وهذه الطبيعة خططت ليكون يوم ٢٥ يناير هو يوم الغضب وهو يوم عيد الشرطة الذي يتم الاحتفال به كل عام تمجيداً لمعركة الشرطة مع قوات الاحتلال الانجليزي في الإسماعيلية قبل ثورة يوليو ١٩٥٢.

ثانيا - الجوع: نافذة على المفهوم

رغم الاختلاف المحتدم بين جموع الباحثين والمهتمين بتعريف الفقر، والذى انعكس بشكل فج فى السياسات التى تتبع لمواجهته، نظرا لاختلافهم الأكبر على مسبباته .. الا ان اختلافهم حول مفهوم الجوع لم يكد يذكر .. فأسبابه غالبا ما تكون محض اتفاق بينهم، وينحصر الاختلاف الحقيقى بينهم فى طرق مواجة الجوع أو الحد منه .

ويعرف الجوع بوجه عام بأنه ظاهرة يعانى فيها سكان منطقه معينة من سؤ تغذية نتيجة أسباب عدة من أهمها الحروب ، والكوارث الطبيعية كالفيضانات والزلازل والبراكين. لذا فهى تنتشر بشكل اساسى فى الدول النامية او دول العالم الثالث ويترتب على ذلك نقص فادح فى الاكل لمدة طويلة مما يتسبب فى موت الألاف او ربما الملايين من الناس جوعا ورغم أن مفهوم الجوع ارتبط بالنواحى الاقتصادية المتصلة بالبقاء البيولوجى للانسان أو غير من الكائنات، بيد أن هناك اصطلحات جديدة لمفهوم الجوع .. فتحدث رجال السياسة عن الجوع السياسي وربطوه بالحرمان المتعمد لفئات سكانية من ممارسة السياسة وربطوه خبراء التنمية البشرية عن الجوع الاجتماعى فى اطار الحديث عن الاقصاء الاجتماعى وعلاقة الانسان بالأخر.. بينما تحدث خبراء المياه عن أزمة الجوع المائى وذلك عندما تكون كمية المياة العذبة المتاحة لمجتمع معين غير كافية لاشباع احتياجات أبناءه من مياه الشرب.. ومن ثم فأن تحديد مفهوم الجوع يخض لمحددات أو توازنات معينة تتصل بكل تخصص.. الا انه يظل مفهوم الجوع مرتبط الى حد كبير بالنقص الحاد فى العناصر الغذائية المطلوبة لاستمرارية الحياة ، ويصاب الانسان او الحيوان بالمجاعة عندما لا يتناول الطعام لفترة طويلة من الزمن .

وتختلف تأثيرات الجوع باختلاف الفئات العمرية والنوع الاجتماعى للفئات المعرضة لخطر المجاعة.. ورغم قدرة الاجسام على مقاومة أعراض الجوع من خلال ما يعرف بيولوجيا بالـ " الهيموستازية " الإ أن الجسم يبدأ بالاستسلام بعد ابقاء المعدة خاوية لزمن طويل. ورغم شدة تأثيرات الجوع على قدرات الانسان، غير أنه بوسع الناس أن يتعافوا من درجات المجاعة الحادة فيستعيدوا امكانتهم الطبيعية ووظائفهم.. بينما يمكن للاطفال أن يصابوا باعاقات ذهنية دائمة او بخلل فى النمو .وتتسبب المجاعة التامة عند البالغين بالموت بعد ٨ الى ١٢ اسبوع؛ حيث يخسر

الاشخاص المصابون بالمجاعة الدهون الاساسية وكتل العضلات. وذلك لأن الجسم يقوم بتحويل تلك الأنسجة إلى طاقة. وفى الغالب تحدث المجاعة ايضا نتيجة نقص الفيتامينات التى تتسبب فى فقر الدم، وعادة ما يكون الأشخاص المصابون سريعى الغضب ومجهدين وكسولين. وربما تمتد تأثيرات المجاعة لتتسبب فى ظهور كثير من الأعراض على الانسان مثل التعب وانتفاخ المعدة وفقدان الوزن والضعف وعدم القدرة على الوقوف

ثالثاً- ثورات الجياع:

لثورات الجياع فى مصر دائما اساب عديدة، تلخصت جميعها فى الأزمات الاقتصادية التى تمر بها البلاد والتى عادة ما كانت ترتبط بمجموعة من العوامل اهمها:

١- **النيل**: فهو الذي منح الله به الحياة لأرض مصر وأهل مصر قال الله تعالي (وجعلنا من الماء كل شئ حي) وبهذا المعيار القرآني تتوقف الحياة علي الأرض بغير الماء. وناهيك عن طبيعة الري وطبيعة الأرض فمصر منذ بدء معرفتها بالاجتماع البشري، كانت تعتمد علي النيل علي الرغم من أن الري كان ري حيضى وليس ريا دائما.. لذا فقد اتجه الوعي المصري نحو حفر الترع والخلجان وإقامة السدود للانتفاع بمياه النيل قدر المستطاع.

٢-الجسور والخلجان: درج بين العاملين بالفلاحة مفهوم " الخلجان"بمعنى " أمهات الترع" أو هى الفروع الرئيسية للري. تلك التى تغذي الترع. وتم حفر كثيرا منها منها قد حفر قبل الفتح الإسلامي بسنوات طويلة. اذ وردت فى أدبيات الرى والزراعة اسماء عديدة لخلجان وترع تم حفرها منذة نشاة الحضارة المصرية كخليج "سخا" و"دمياط" و"منف" و"المنهي" و" اكسردس" و" الإسكندرية". وكان للسدود دورا مهما فى نشأة الحضارة المصرية القديمة بل والحديثة ايضا. نظرا لما تقوم به من دور فى حجب مياه النيل قبل الفيضان مما يجعل الرى يتم بشكل مرحلى، فضلا عن اهميتها فى الحفاظ علي المياه من التسرب والضياع اثناء الفيضان.

وكثيرا ما يربط المعنيون بدراسة التاريخ المصري بين فترات المجاعات وبين عدم وفاء النيل وعدم العناية بالجسور والخلجان والترع. إذ هي منظومة متكاملة تحتاج إلي عناية فائقة. ففى العصر الفاطمى وتحديدا ابان ولا ية "المستنصر بالله الفاطمي" أنشأ المصريون جسرا من الطين" كان يصرف علي تجديده من خزانة السلطان.. وانقسمت الجسور فى ذلك العصر البائس إلي " جسورعامة" ترعى صيانتها الدولة وأطلق عليها "الجسور السلطانية". كما كان هنك ما يعرف "بالجسور المحلية"، وكانت مسئولية العناية بها تقع على عاتق الفلاحين، أولئك الذين اهتموا بمقياس النيل لتقدير الشدة والرخاء والخراج،فأقاموا المقاييس علي طول مجري النيل في صعيده ودلتاه .

هذا وقد وجد العرب إبان الفتح الإسلامى عدة مقاييس كمقياس "منف" و"حصن بابليون"الأمر الذى دفعهم إلى اضافة مقاييس أخرى جديدة، كمقياس حلوان والمقياس الهاشمي ..الخ. وكان مقياس وفاء النيل عندهم هو "ستة عشر ذراعا". وتجدر الاشارة إلى أن نقصان النيل كان يؤثر تأثيراً كبيرا علي التجارة الداخلية المعتمدة علي النيل في نقل البضائع وسير السفن. ففي عام ٣٩٨هـ نقص ماء النيل نقصانا فاحشاً. إذ أصبح النيل حسب ما وصفه " يحي بن سعيد الأنطاكي" مخائضاً تخوضه الدواب. وذلك يعني عدم سير الراكب فيه وانقطاع صنوف التجارة الداخلية المعتمدة علي نقل السفن والمراكب.

وليس نقصان النيل وحدة كما سبق وذكرنا هو المسئول الوحيد والمتهم الأوحد في حدوث الظمأ والقحط .. بل وفيضانه أيضا كان سببا قويا في تفويت موسم الزراعة علي الفلاح المصري.. فإذا زاد المقياس عن ثمانية عشر ذراعا استبحر من الأرض أكثر من ربعها،وعند انصرافه يحصل الوباء.

٣- طاعون الماشية: يعتمد الفلاح المصري القديم قبل تطور الماكينة الزراعية "وآلية العمل الزراعي" - إن جاز هذا التعبير- علي الماشية في العمل الزراعي من حرث وري وجر وغيرها. ولذلك سن القوانين التي تمنع ذبح الأبقار الخالية من العيوب والصالحة للحرث.

٤- الآفات الزراعية وإهلاك المحاصيل:من العوامل التي كانت سببا رئيسا فى حدوث المجاعات فى التاريخ المصرى القديم، كانت الآفات الزراعية كالجراد الذي قضي علي المحاصيل، مثلما حدث في عام ٣٢٧ ه وسد شعاع الشمس وأتي علي كل أخضر وقضى عليه، وعلى اثره خُربت البساتين وأتلفت المزروعات .

٥- الأونية والأمراض والطاعون : تسببت الأمراض ولا سيما " الطاعون " بشكل كبير فى تعطيل القوي الإنتاجية في كل مجالات الحياة. حيث كان الناس يهجرون المنطقة التي يظهر فيها المرض، ويتكدسون في سواها دون إنتاج. وعمل هذا التنقل بشكل اساسى علي تفشى الأمراض وزيادة البلوي وإهدار الإنتاجية بشكل كبير..

٦- عوامل بشرية: كثيرا ما تكون الأزمات صناعة بشرية.. فحسب ما ورد على لسان " القاضى" أن فرط الاستشعار بقدوم المجاعة يؤدي إلي الاحتكار وغلاء الأسعار، أي أن القلق الملازم للمصريين من عدم وفاء النيل يجعلهم يلجئون إلي تخزين الغلال بدافع الخوف والاحتمال والشك، وكذلك هذا الخوف يدفع التجار للاحتكار لتحقيق هامش ربح أكثر. وفطن المسلمون إلى ذلك الأمر جيدا، فانتبهوا الى احاديث النبى صلى الله عليه وسلم حين قال مجرما الاحتكار " من احتكر فهو آثم" ويأثم المحتكر لأنه أضر بقوة المسلمين.. ورغم حقارة المحتكر وجرمة الفعل أخلاقيا ودينيا فما زال سير بعض الناس فى الاحتكار معلوم.

ورغم أن الثورات التي أشعلها الجياع كان لها عوامل طبيعية وعوامل بشرية .. بيد ان عدم وفاء النيل كان من أشد وأنكي العوامل الطبيعية فى احداث المجاعات على الاطلاق . ورغم منطقية العرض والأهمية النسبية لعدم وفاء النيل فى حدوث المجاعات، إلا أن هناك من يرى أن الثورات التى يثيرها البشر الطامعين فى السلطة والحريصين على الوصول إليها بأي وسيلة هى أشد ضررا وأعظم خطرا وأطول زمنا.. لأن النكبات والأزمات الناتجة عن زلازل أو فيضانات أو انخفاض مياه النيل مثلا كلها تؤدى إلى تعاون الناس واتحادهم لمواجهة هذه الأزمات؛ مما يزيد المجتمع قوة وترابطا ويستطيع الصمود والتغلب على تلك الظروف الطارئة . أما الثورات التى يؤججها الصراع السياسى فإنها تضعف وتهدر من قوة المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية وتستمر زمنا أطول لأن هناك من له مصلحة فى استمرارها.. فأكبر بلاء وأعظم ضرر قد أصيبت به الأمة العربية والإسلامية كان بسبب الصراع السياسى على الحكم وليس بسبب زلازل ولا براكين ولا نقص النيل ولا فيضانه .

وإذا كان هناك من يرى أن كثيرا مما أصاب الأمة من التفرق والصراع والضعف والهزيمة كان بسبب عبيد السلطة. فإن الواقع يشير إلى أن صبر الشعوب على الفقر والجوع أكبر بكثير عن صبرها على المساس بالكرامة أو تعرضها للظلم والهوان؛ وذلك لأن السلطة السياسية قد تجد مبررا للفقر وسوء الحالة الاقتصادية للبلاد متعللة بكثرة السكان أوقلة الموارد و تأخر البحث العلمي وعدم قدرته على حل مشاكل المجتمع. لكن هذه السلطة السياسية لن تجد أبدا مبررا للظلم والتهميش .

رابعاً- الفتن والثورات:

و بها يدمر المخزون الاستراتيجي للدولة ويذهب المدخر .. لتقريب ذلك المفهوم وعلاقته بالثورة نستشهد بثورة "محمد بن علي الخليجي" علي الدولة العباسية في مصر، حيث ذكر " ابن تغري بردي" أن الخليجي رغم نبل مقصده من ثورته؛ بيد أنه تسبب فى افساد أحوال الديار المصرية وتركها خرابا خاوية سرابا، لما تسببت فيه هذه الثورة من الفتن والفوضى. وكثورة " أبي ركوة" الوليد بن هاشم أمين خزنة الفيوم علي خلافة ("الحاكم بأمر الله" فتسببت ثورته فى اضطراب الأسعار، وكذلك فتنة المغاربة والسودان في أيام "("المستنصر" وكان لها بالغ الأثر في حدوث الشدة المستنصرية. وكذلك هجرات التكدس ونقل الأونية كالهجرة الداخلية والخارجية هى من العوامل البشرية المسببة للأزمات مثل ارتفاع الأسعار عام ٣٠٧هـ بسبب الهجرة إلي الفسطاط وبعض المدن الكبرى وكذلك ٤٩٣هـ بسبب تكدس

الناس في القاهرة هربا من الفرنجة . وكذلك التغيرات السياسية كسقوط دولة أو وفاة أمير أو تنحي رئيس يزيد تخزين الغلال ويؤثر فى العرض والطلب نتيجة الخوف من المستقبل فترتفع الأسعار. وعلى اية حال لم تكن النوايا الحسن وطيب المقصد عامل اساسيا لنجاح الثورة .. فليست النوايا السيئة وحدها من تسبب فى افشال الثورات وتفشى الفوضى.. فهناك ثورات عديدة فشلت رغم طيب مقصده القائمين عليها.. ويمكن وذع ذلك فى الحسبان عند تحليلنا لما حدث فى ثورة ٢٥ يناير التى قام بها فرقة من شباب الطبقة المتوسطة ضد نظام مبارك.. وما إن وقع مبارك راس النظام الا وتفشت الفوضى وتحولت الميادين الى ساحات للتخوين والعمالة وانقسم الشعب الا اطياف عديده متقاتلة، مما تسبب فى حدوث ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣م والتى اعطت الفرصة كاملة لاستعادة النظام المنهار بمسكات جديدة ولكنها تحمل نفس العقيدة .
كما تذكرنى الحرائق الكثيفة التى شهدتها مجلس ابان حكم المجلس العسكرى فى مرحلة ما بعد ثورة يناير بتلك الحرائق الكبيرة التي حدثت سنه ٣٤٣هـ في أيام "كافور الإخشيدي") وكانت وكانت سببا كافيا لتزمر الجياع في فترة حكمهة كانت، وأثبتت الأحداث فيما بعد أنها كانت أزمة أفتعلها التجار المحتكريين ليحصدوا أرباحا طائلة. ولقد صاحب سقوط الدولة الإخشيدية أزمة اقتصادية لم تنتهي إلا بعد عامين
وعندما تشتد المجاعة تضعف بالضرورة الحالة الأمنية فى المجتمع؛ وذلك لما تسببه المجاعة من انتشار للسلب والنهب. ورحم الله (عمر) رضي الله عنه عندما رأى وهو المشهود له بالعلم والفقه أن يوقف تطبيق حد السرقة في عام الرماد لعدم اكتمال شروط تطبيقه فى هذا العام. لذلك ليس عجيبا أن تنشب ثورة العبيد سنة ٤١٤هـ و ٤١٥هـ حين هجم العبيد علي سماط عيد الأضحى (النحر) عندما لم يحضره "الطاهر لإعزاز دين الله " وقالوا (الجوع الجوع نحن أحق بأكل سماط مولانا) ونجا رجال الدولة بأنفسهم ولم تنجح محاولات التصدي لهم. وفي ٢٣ من ذي الحجة سنة ٤١٥هـ تجمع العبيد واللصوص إلي جبل المقطم وعزموا علي نهب المدينة وتحرك " بدر الدولة نافذ " وعسكره وصدر أمر للأهالي بقتل العبيد إن تعرضوا لهم. وكان العبيد قد أكلوا الكلاب من الجوع. وتوجه " معضاد ونسيم" إلي العبيد ووعدوهم بإحضار الأموال إليهم في اليوم التالي وعاد العبيد إلي ديارهم ولكنهم نهبوا حاراتهم ودار " ست ياقوت " التي بساحل الشعير ودار الكتابة واستولوا علي القمح والشعير ونهبوا كل شئ. وتكاتف الناس مع " بدر الدولة نافذ" و" المعضاد" وأوقفوا أعمالهم ولم تستقم الأمور وتستتب وظل الحال كذلك طوال فترة الشدة المستنصرية .

خامساً- الثورة والجوع والانفلات الأمنى:

يقصد بالانفلات الأمني: مجموع أعمال العنف التي تقع داخل المجتمع، وينجم عنها أضرار بحقوق المواطنين، وعلى وجه الخصوص حقهم في الحياة والسلامة الجسدية وحماية ممتلكاتهم، يرتكبها أشخاص ينتمون إلى الأجهزة المكلفة بإنفاذ القانون، أو يحسبون عليها، أو من قبل مجموعات مسلحة محلية، كذلك الأحداث التي يقوم بها مواطنون، وتندرج عادة ضمن مستوى الجرائم العادية. كما يعرف الانفلات الأمنى أيضا بأنه: أحد الظواهر(الضد - أمنية) التى تسود المجتمع أو الدولة متى انفرط عقدها أو فقدت قوتها وهيبتها وسلطانها وقدرتها على السيطرة والتحكم. ويحدث الانفلات الأمنى نتيجة لمجموعة من العوامل المتداخلة أهمها:

- تدهور العلاقات بين السلطة الحاكمة وأفراد المجتمع وخاصة إذا كان النظام دكتاتورياً ولا يبالى تطلعات الجماهير الشعبية.
- ارتفاع نسبة الأمية والجهل وانعدام الوعي الأمنى لدى أفراد المجتمع وجهلهم بالآثار المدمرة التى يحدثها الفراغ أو الانفلات الأمنى.

- التخلف المادي والحضاري.
- شعور الأقليات العرقية والطوائف الدينية بالظلم والاضطهاد – رغبة الأقليات والطوائف فى الانفصال وتفشى هذه الثقافة بين إفرادها.
- عدم اتباع سياسة متوازنة فى العلاقات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية والثقافية بين مكونات الدولة من الجماعات والأقليات الدينية والعرقية.
- ضبابية السياسة التي تتبعها السلطة الحاكمة وعدم وضوح الصورة لدى أفراد المجتمع.
- استثناء فرد أو مجموعة أو أقلية أو طائفة أو قبيلة أو حزب بحكم مستبد لا يخدم مصالح الجماهير.
- ضعف الأجهزة الأمنية وعدم قدرتها على السيطرة.

وإذا كانت هذه العوامل تعبر عن إسهامات المجتمعات المحلية فى إحداث حالات الفوضى والانفلات الأمنى والقيمى بمجتمعاتها.. فثمة عوامل عامة وخارجية تسهم فى تشكيل حالات الانفلات فى المجتمعات المستهدفة.. **ومن هذه العوامل:**

١. الغزو أو الاجتياح المسلح " العسكرى ".
٢. احتدام شدة الصراع على السلطة بين الجماعات وبين الأحزاب والميلشيات وغيرها.
٣. الصراع المسلح بين الطوائف العرقية أو الدينية أو الأقليات.. إلخ.
٤. ظهور الحركات الانفصالية المسلحة " حركات التمرد ".
٥. ضعف الأجهزة والهياكل الأمنية فى الدولة وغياب التنسيق بينها.
٦. ارتفاع نسبة الجريمة المنظمة وظهور العصابات المسلحة والجماعات المعادية.
٧. انفراط العقد الاجتماعي، وهنا تبرز فكرة القائد فى فلسفات القيادات الشعبية الاجتماعية وأهميتها الأمنية.
٨. ظهور الجماعات السرية كالجماعات الدينية المتطرفة.
٩. فقدان القوة الجامعة والشعور الوطنى.
١٠. الضعف والتجزئة والتفكك وعدم القدرة على التوحد وبناء القوة.
١١. تفشى واستفحال بعض الظواهر غير المشروعة- التسلح غير المشروع للأقليات والجماعات والطوائف فى المجتمع.
١٢. الكوارث الطبيعية الجسيمة قد تؤدى إلى حدوث الانفلات الأمنى متى كان المجتمع أو الدولة غير قادرة على السيطرة وعلاج تلك الكوارث الجسيمة.
١٣. تفشى الأوبئة والأمراض بشكل واسع وحاد وفى ظل عدم وجود العلاجات وعدم القدرة على السيطرة على الوباء قد يؤدى ذلك أيضاً إلى حدوث الانفلات الأمنى أي حدوث الظاهرة الضد أمنية.
١٤. المجاعات البشرية الكبرى قد تؤدى أيضاً إلى حدوث الانفلات الأمنى.

تتعد العوامل المرتبطة بالانفلات الأمنى والتى ربما تدفع دفعاً إلى ارتكاب الجرائم سواء فى حق الأفراد أو الجماعات.**ويمكننا رصد هذه العوامل فيما يلى:**

-التعصب: هو اتجاه سلبى يتبناه أعضاء جماعة معينة مستمد من معاييرها القائمة، ويوجه نحو جماعة أخرى. وتعتبر الاتجاهات التعصبية بمثابة ميل انفعالي ربما يؤدى بصاحبه إلى أن يفكر ويدرك ويسلك طرقا وأساليباً تتفق مع حكم بالتفضيل، وفى الغالب بعدم التفضيل بشخص أخر أو جماعة خارجية، أو موضوع يتصل بجماعة أخرى، ويحدث هذا الحكم مسبقاً؛ لوجود دليل منطقي مناسب، أو دون أي دليل وهو غير قابل للتغير بسهولة بعد توافر الدلائل العارضة التى تشير إلى عدم صحته؛ لأنه ينطوى على نسق من القوالب النمطية، وإذا وصل التعصب إلى درجة معينة من الحدة يصبح عاملاً من عوامل الفوضى والانفلات وتقويض وحدة المجتمع ويهدد كيانه، كما تحدث الاتجاهات التعصبية نتيجة للانحراف عن كل من العقلانية Rationagity والعدالة Justice والمشاعر الإنسانية الرقيقة Human Heartedness، وهذه المعايير الثلاثة تتضمن نسق قيم الأفراد ويسهل الاحتكام إليها عند التعبير عن مختلف الجوانب السياسية والدينية والتربوية.

التطرف: ويشير التطرف إلى ارتفاع مستوى التوتر لدى الفرد أو الجماعة نتيجة للشعور بعدم الطمأنينة؛ مما يؤدى إلى التوتر وعدم تحمل الغموض الذى يؤدى فى النهاية إلى تطرف الاستجابة.(عبدالله،١٩٨٧)[i] ويعنى التطرف بمعناه العام" مجاوزة حد الاعتدال بالغلو والتشدد فى أى شيئ أوفكرة أو رأى أو معتقد".(العشماوى، ١٩٨٧م)[ii] وقد يكون التطرف نسيج فكر معين أو خليط معتقد معين أو اتجاه جماعة خاصة. فإذا بمعتنق الفكر مغالياً وصاحب المعتقد متشدداً و عضو الجماعة متطرفاً. ولا يمكن أن يتخلى أحدهم عن مغالاته أو تشدده أو تطرفه إلا إذا نوقش بحرية، وتم مجادلة المعتقد بالتى هى أحسن، وقد يكون التطرف عملاً فردياً عفوياً، أو تطرفه عصبة عشوائية.. وربما يكون رد فعل بعض من الناس على بعض الأوضاع والظروف.

ويعتبر التطرف محاولة للهروب من الواقع غير المقنع للإنسان الذى يفقد التكيف مع المجتمع، وقد يكون العامل وراء ذلك هو اضطراب الشخصية، وقد يرجع ذلك إلى خلل فى تقبل المجتمع للفرد أو عدم إشباع احتياجاته، وإذا اعتبرنا التطرف نتاجاً فكرياً فأنه من المنطق أن يكون له أبعاداً سلبية وإيجابية، ويعد البعد السلبي للتطرف ظاهرة مرضية اجتماعية، وتعمل على تدمير المجتمعات، لما ينجم عنه من أثار تخريبية، أخطرها التطرف الدينى تجاه النظم السياسية، وتحقق ظاهرة التطرف وجودها وتأثيرها إذا كانت القضية التى يناضل من أجلها المتطرف تعيش فى وجدان الأمة، وهى ظاهرة تشير إلى عدم الاستقرار الفردى أو الجماعى، وهى مقياس لمدى توتر الشخصية فى البيئة الاجتماعية، وتشير كذلك إلى وجود ثمة خلل قائم فى منظومة القيم التربوية فى المجتمع.

الجمود: ويشير إلى المقاومة الكلية للإنسان لتغيير معتقداته، كما يشير إلى مجموعة المظاهر السلوكية والمعرفية المتعلقة بالأفكار والمعتقدات المنتظمة فى نسق ذهنى مغلق نسبياً، ومن أهم خصائصه أنه طريقة منغلقة على التفكير، ترتبط بأي أيديولوجية بصرف النظر عن مضمونها، ونظرة تسلطية فى الحياة، وعدم تحمل الأشخاص الذين يختلفون أو يعارضون المعتقدات الخاصة بأصحابها وتسامح الأشخاص الذين يعتقدون معتقدات متشابهة.

ويتسم الشخص الجامد بأنه متمسك وملتزم ومعتنق أو يدافع عن بعض الأنساق العامة أو الفرعية من المعتقدات فى الدين أو السياسة العامة أو العلم. أى أن مرجع سلوكه هو النسق الكلى للأفكار أكثر منه فكرة واحدة، ويقال عنه أنه شخص جامد الذهن أو منغلق ذهنياً.

التصلب: ونعنى بالتصلب العجز النسبى عن تغيير الشخص لسلوكه أو اتجاهه، وعندما تتطلب الظروف الموضوعية ذلك، والتمسك بطرائق غير ملائمة للسلوك والشعور، ويمثل مقاومة اللجوء إلى أنواع جديدة من الاستجابات التكيفية، ويشير التصلب إلى مقاومة التغير لمعتقد فردى أو مجموعة من المعتقدات أو العادات أو إلى وجود بعض الميول القهرية أو الوسواسية النوعية داخل الفرد.

إجرام السلطات العمومية: وهو أكثر هذه الفئات تعقيداً وتنوعاً فهناك الارتباط الوثيق بين هذه السلطات وقوى الجريمة الاقتصادية، وللجماعات الإرهابية دائماً تحالفاتها المعروفة أو الخفية مع الأنظمة السياسية وأجهزة الاستخبارات، بل إن أنشطتها تخدم في حالات كثيرة الأجندة السياسية للأنظمة التي تدعي مواجهتها، فثمة أحياء المتواتر لأشكال قديمة من الفساد الناتج عن سوء استغلال السلطة و تحالفاتها مع المجرمين. وقبل هذا وذاك تأتي الجرائم الأكثر لصوقاً بطبيعة السلطات العمومية، كالجرائم ضد الإنسانية التي ترتكبها الأجهزة السرية وقوى الأمن والجيش، ومنها أيضاً الحروب وجرائمها، وأخيراً تسخير أجهزة الدولة لخدمة الأغراض الإجرامية لجماعات ضغط ومراكز نفوذ خفية، في تحريف صريح للوظائف الأصلية للدولة وانحراف واضح عن قوانينها، والذي يدعو لمزيد من القلق أن هذه الأشكال الجديدة من الجريمة تتميز بكونها ذات طبيعة منظمة وأنها تمارس -أو تلقى الدعم والحماية- من طرف سلطات قوية وخفية تحتل مواقع النفوذ والتحكم.

ويعني ذلك حدوث تحول في الخلفية الاجتماعية للظاهرة الإجرامية، على الأقل في مستوياتها "العليا"، حيث لم تعد "الطبقات الخطيرة" هي تلك الأكثر فقراً وهامشية، وإنما "النخب" المتحكمة سياسياً واقتصادياً، وغدت الأولى خاضعة للثانية التي ترعى كل نزوع إجرامي وتستغله لحسابها، كما أن الصيغ الجديدة للجريمة أضحت تمثل عدواناً جدياً على مصالح أساسية فردية وجماعية لأن الأمر تحول من انحراف أفراد معزولين وعاجزين إلى إجرام واسع النفوذ يتمتع بمستوى غير مسبوق من الحصانة ضد العقوبة وقدرة فائقة على الابتزاز تتناسب مع تزايد قوة المنظمات الإجرامية وتوثق صلاتها بالسلطات العمومية.

وتمثل أزمة القانون الجنائي مظهراً ونتيجة لحلول ظرفية قاصرة عن مواجهة الأسباب البنيوية للجريمة ومقتصرة على تغذية -حتى لا نقول صناعة- المزاج القمعي والمخاوف السائدة في المجتمعات المعاصرة. وتتجلى أخطاء هذه السياسات ومخاطرها بوضوح في ما يتعلق بالمسألة الأمنية، التي **يمكن رصد الانحرافات المتصلة بها على مستويين:الأول** منهما عناية السلطات العمومية عادة بترسيخ فكرة أن الجريمة التي تمثل خطراً على أمن المجتمع وسكينته هي الجريمة الصغيرة الشائعة والمبتذلة.

وفحوى هذا الخطاب، المتناغم بوضوح مع مصالح الإجرام، أن الطبقات المهمشة كالفقراء والأقليات العرقية والمهاجرين هي مصدر الخطر وأن الاختلاف الاجتماعي والانحراف مترابطان

بالضرورة، في محاولة لصرف انتباه الرأي العام عن جرائم السلطة والجريمة المنظمة وتصويب اهتمامه نحو الجريمة الهامشية دون غيرها.

أما **الثاني** منهما فهو أن هناك رسالة سياسية أخرى لا تقل خطورة، وتتعلق بتحريف مفهوم الأمن واختزال مدلوله عبر تجاهل المحتوى الواسع لمفهوم الأمن الاجتماعي، وحصر دلالته في فكرة الأمن علي النفس مختزلة، بدورها، في مهام حفظ النظام العام. تحاول هذه السياسات الربط بين الأمن وبين التدخل الجنائي كما لو كان يمثل حلاً سحرياً للمشكلة و الواقعُ أن مواجهتها لا تحتاج إجراءات جنائية بقدر ما تتطلب سياسات اجتماعية لأن حلها يمر عبر خطط للدمج لا من خلال استراتيجيات للإقصاء.